الفصل الثالث

الإمام الشافعى والفكر اليونانى

١

روى عن الإمام الشافعى - رضى الله عنه - أنه قال :

« ما جَهِلَ الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسانَ العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس » .

هذا النص من الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ يبين لنا أن هذا الإمام الجليل يفرِّق ـ ككل ذوى البصائر المشرقة ـ بين مصدرين من مصادر المعرفة ، لكل منهما طريقته وسُنَّته ، ولكل منهما أسلوبه وجوُّه ، أو بكلمة واحدة : (لسانه) .

أما أحدهما : فهو المصدر الإلهى ، إنه « الوحى » .

وأما الثانى : فهو المصدر البشرى ، عقليًا كان أو حسيًا .

وللمصدر الإلهى ميدانه : إنه عالم الغيب ، وعالم الأخلاق .

وللمصدر البشرى ميدانه : إنه عالم الطبيعة ، إنه العالم المادىّ المُحَسّ .

وحينما تسير أمور الإنسانية على ما ينبغى أن تكون عليه ، فإنها تُسلم نفسها لله فى كل ما يتعلق بالدين ، عقيدةً كان أو شريعةً أو أخلاقاً ..

وتكدح ـ التزاماً لأمر الله ـ فى عالم الطبيعة ؛ حتى تنتهى إلى تسخيره ـ بعقلها وتجاربها ـ فى سبيل إسعاد الإنسانية ، هادفة من وراء ذلك إلى إرضاء الله والدخول فى رضوانه .

وانحرف اليونان عن ذلك كله ، فاتجهوا ـ فى الأغلب الأعم ـ إلى اللسان البشرى ، وكان أرسطو هو اللوحة المتقنة الرسم ، تعبيراً عن هذا الاتجاه .

لقد أراد أرسطو أن يُخضع الطبيعة ، وأن يُخضع ما وراء الطبيعة للسان

البشرى ، فأبدع كل الإبداع تنسيقاً وانسجاماً ، وأخفق كل الإخفاق صدقاً واتجاهاً ؛ فكان مثله كمثل اللوحة الزائفة البرَّاقة ، والسراب الخادع ؛ فقاد الإنسانية إلى انحراف هائل، وإلى اضطراب فى الفكر ، وفى العقيدة ، لا حَدَّ له !

ولقد كان سحره من القوة والنفوذ ، بحيث استمر تيَّاره يضطرب فى جوانب الإنسانية إلى الآن . وما من شك فى أن أرسطو كان قوة خارقة ، وعبقرية هائلة : ذكاءً ، وبحثاً ، ومعرفةً ، ولو لم يكن كذلك لما كان له هذا التأثير العميق إلى الآن، ونحن ـ حينما نتحدث عنه ـ لا ننكر ما فيه من امتياز فطرىّ صقله الكسب والتحصيل ، لكنه استعمل كل ما له من عبقرية فى النزول بالإنسانية إلى الحيرة ، والنقص ، والشك ؟

ومنذ أن وُجد الإنسان ، وُجد معه رُوحٌ مِنْ أَمْرِ الله ، هو : الوحى ، يرشده ويهديه ، ويبين له المبادئ ويوضح القواعد ، فى المسائل التى لا يصل تفكيره البشرى إلى حل فيها ، وهى: مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل السلوك الصحيح، تشريعاً كان ذلك أو أخلاقاً .

ولا ريب أن الإنسان ـ منذ أن وُجد ـ فكَّر فى الوحى ، يريد أن يعرف العلل والحكمة ، ويريد أن يصل إلى السر ويكتنه الغايات ، وكان يتمرد أحياناً ، كما فعل ابن آدم الذى قتل أخاه شهوةً وحسداً.

ولكن المجتمعات القديمة ، على وجه العموم كانت تخضع لأمر الله ، وتُسلم نفسها إليه فيما لم تحط به علماً من عالم الغيب ، وفيما تتفاوت فى إدراكه من عالم التشريع والأخلاق . أما فى عالم الطبيعة، فقد كانت المجتمعات أعلم بشئون دنياها .

ولما جاء العهد اليونانى لم يكن هناك « رُوحٌ مِنْ أَمْرِ الله » فأخذ الإنسان يقيم من نفسه رسولاً ، وإن لم تكن له بالسماء صلة ، وأخذ يقيم من نفسه مشرِّعاً ، وإن لم تأذن له السماء بذلك ، وأخذ بمذهب الأخلاق ، وهو أعجز من أن يصل فيها إلى الفيصل الحق.

وكانت نتائج هذه النزعة تتبين شيئاً فشيئاً ، ذلك أن كل فيلسوف كان يختلف

عن سابقه ، وكل مفكر يبتعد ـ فيما وصل إليه ـ عن الآخرين .

ولقد اختلف «انكسيمندر» عن «طاليس» ، واختلف «هرقليطس» عنهما ... وهكذا إلى أن وصل الأمر إلى أرسطو الذى أراد أن يعصم الذهن من الانحراف والضلال ، فاخترع المنطق . وهو ـ على حد تعريفه ـ «آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الخطأ فى الفكر» . بيدَ أنه بعد أن اخترع المنطق ، وبعد أن استعمله فى عصمته هو ، لاحظ عليه معاصروه ـ والذين أتوا بعده ـ أخطاء لا حصر لها .

وسواء أكان هؤلاء الذين أعلنوا عن أخطائه ، وأبانوا عن تهافته، محقِّين أم غير محقِّين ، فإن تلاميذ أرسطو وأبناء مدرسته ومناصريه رأوا أن الاعتراضات على أرسطو فى مذهبه الخاص بما وراء الطبيعة هى من الكثرة والقوة بحيث لا يمكنهم الرد عليها .

إنهم مع ما لهم من باعٍ واسع فى عالم الفلسفة ، ومع أنهم يُعَدُّون من قادة الفكر كانوا أعجز من أن يمكنهم الدفاع عن «المعلِّم الأول» .

وعجزت آلة عصمة الذهن عن عصمة ذهن مخترعها ، وعن عصمة ذهن أتباعه .

ولكنَّ المعترضين على أرسطو لم يُقرّ أحد من كبار الفلاسفة لهم بالصواب المطلق ، وإنما كانت آراؤهم - هى الأخرى - مثار جدل واعتراض وتجريح ونقض .

وسارت الأمور على هذا النسق بعد أرسطو ، كلما جاءت أُمَّةٌ لعنت أختها ، وكلما نشأت مدرسةٌ حملت على سابقتها ، بل حملت على كل مَنْ سبقها .

وكشف الزمن ـ فى تتابعه ـ عن الصورة الحقيقية للإنسانية فيما يتعلق بمقدرتها على الكشف عن عالم الغيب .

لقد كشف الزمن عن أن عالم الغيب إنما هو «حِجْرٌ محجورٌ» بالنسبة للعقل البشرى ، فلن يتأتَّى ـ بوضعه البشرى ـ أن يطأ حماه ولا أن يلج بابه .

وتقدَّس عالم الغيب عن أن يمسك بمفتاحه أو يكشف عن مساتيره إلا من أَذِنَ له الله من نبيٍّ مُكرَّم أو من رسول مأذون .

ولكن الإنسان هو الإنسان : يظن كل فرد من أفراده أنه سيأتى بما لم تستطعه الأوائل، ويعتقد كل نابهٍ من أبنائه أنه أنبه من الآخرين ، وإذا كان الآخرون - كل الآخرين - قد أخفقوا ؛ فإن ذلك لا يعنى أنه هو الآخر سيخفق مثلهم ، وكبرياء الإنسان لا حَدَّ له ، وخياله لا تقف فى سبيله العقبات .

ولذلك استمر تيار الانحراف الذى قاد الإنسانية فيه أرسطو ، سائراً يتخطى القرون قرناً بعد قرن ، حتى وصل إلى الجوِّ الإسلامى فى عهد العباسيين الأول ، بل قبل ذلك.

وأخذ المسلمون يختلفون بعد اتفاقهم ، ويتفرَّقون بعد تجمُّعهم .

ولاحظ الإمام الشافعى كل ذلك ، وأدرك بفكره السر فقال كلمته الحكيمة العميقة : « ما جَهِلَ الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسانَ العرب وميلهم إلى لسان أرسطو » .. ولكن كلمته تحتاج إلى بيان أكثر .

* * *

٢

« ما جَهِلَ الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسانَ العرب وميلهم إلى لسان أرسطو » (**الشافعى**) .

ولسان أرسطو الذى يعنيه الشافعى - رضوان الله عليه - إنما هو الفكر اليونانى : فى « المنطق » ، وفى «ما وراء الطبيعة » ، وفى «الأخلاق» .

ولقد بدأ الإسلام بعيداً عن هذا اللسان البشرى ، لأنه وحى إلهى ، واستمر المسلمون عشرات السنين لا يعرفون إلا الوحى المُنزَّل ، ولا يصدرون إلا عنه .

أما ابتداء دخول الفكر اليونانى فى الجو الإسلامى :

فإن الكتب الإسلامية القديمة تروى فى ذلك أخباراً هى أشبه بالأساطير فى سذاجتها ، وتؤرخ لنشأة تسرُّب الفكر اليونانى إلى الجو الإسلامى ، وتعلل لذلك .

وهى ـ على سذاجتها ، وعلى ما تلبسه من صورة قد تثير الابتسام ـ فإنها عميقة المغزى ، قوية الدلالة :

يروون مثلاً : أن سبب خروج كتب اليونان من أرض الروم إلى بلاد الإسلام إنما هو : يحيى بن خالد بن برمك.

وذلك أن الكتب اليونانية كانت ببلد الروم ، وكان ملك الروم قد خاف على الروم إن نظروا فى الكتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونان ، وتتشتَّت كلمتهم وتتفرق جماعتهم ، فجمع الكتب فى موضع وبنى عليها بناء مطمساً بالحجر والجصِّ حتى لا يُوصَل إليها.

فلما أفضت رياسة دولة بنى العباس إلى يحيى بن خالد ، وكان زنديقاً بلغه خبر الكتب التى فى البناء ببلد الروم ، فَصَانَعَ ملكَ الروم الذى كان فى وقته ، بالهدايا ، ولا يلتمس منه حاجة .

فلما أكثر عليه جَمَعَ الملك بطارقته ، وقال لهم : إن هذا الرجلَ خادمَ العربىّ قد أكثر علىَّ من هداياه ، ولا يطلب منِّى حاجة ، وما أراه إلا يلتمس حاجة ، وأخاف أن تكون حاجته تشقُّ علىَّ ، وقد شغل بالى ؟ ..

فلما جاءه رسول يحيى قال له : قل لصاحبك ؛ إن كانت له حاجة فليَذْكرها.

فلما أخبر الرسول يحيى ردَّه إليه وقال له : حاجتى هى الكتب التى تحت البناء يرسلها إلىَّ ، أُخرج منها بعض ما أحتاج وأردها إليه .

فلما قرأ الرومىّ كتابه استطار فرحاً ، وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان ، وقال لهم : قد كنتُ ذكرتُ لكم عن خادم العربىّ ، أنه لا يخلو من حاجة ، وقد

أفصح بحاجته ، وهى أخفُّ الحوائج علىَّ ، وقد رأيتُ رأياً فاسمعوه ، فإن رضيتموه أمضيته ، وإن رأيتم خلافه تَشاورنا فى ذلك حتى تتفق كلمتنا ، فقالوا : وما هى ؟ قال : حاجته الكتب اليونانية ، يستخرج منها ما أَحَبَّ ويردُّها. قالوا : فما رأيك ؟ قال : قد علمتُ أنه ما بَنَى عليها مَنْ كان قبلنا إلا لأنه خاف إن وقعت فى أيدى النصارى وقرءوها ؛ كان سبباً لهلاك دينهم ، وتبديد جماعتهم. وأنا أرى أن أبعث بها إليه ، وأسأله ألاَّ يردَّها ، يُبتلون بها ونَسْلَمُ نحن من شَرِّها ، فإنى لا آمن أن يكون بعدى من يجترئ على إخراجها إلى الناس ، فيقعوا فيما خِيفَ عليهم . فقالوا : نِعْمَ الرأىُ رأيتَ أيها الملك ؛ فأَمْضِهِ . فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد.

فلما وصلت إليه جمع عليها كل زنديق وفيلسوف ، فممَّا أخرج منها كتاب «حَدّ المنطق» .

قال أبو محمد بن أبى زيد : « وقَلَّ مَنْ أنعمَ النظرَ فى هذا الكتاب وسَلِمَ من زندقة »[1] .

وتروى هذه القصة - على اختلاف فى الأسماء والزمن مع اتحاد الجوهر - على أنحاء شتَّى ، منها : رواية الصلاح الصفدى فى «شرح لامية العجم» :

حكى أن المأمون ، لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب جزيرة قبرص - كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليه أحد . فجمع الملك خواصَّه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك ، فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إليه إلا بِطْرِيقاً واحداً فإنه قال : جَهِّزْها إليه ، فما دخلتْ هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها .

أما جهل الناس بسبب ميلهم إلى لسان أرسطو وتركهم لسان العرب ، فإن معناه يحتاج إلى إيضاح ..

---

(١) من كتاب « صون المنطق والكلام » للسيوطى .

وإنه لمن الغريب ـ فيما يبدو ـ أن تكون المعرفة للجوانب النظرية اليونانية جهلاً ، وأن تكون زيادة العلم بها ـ مع ترك لسان العرب ـ زيادةً فى الجهل .

والناس يرون الآن أن الثقافة اليونانية النظرية إنما هى ثقافة ممتازة لا غِنَى لمثقف عنها ، بيد أن الميدان الذى تحدَّث عنه الشافعى ـ رضوان الله عليه ـ إنما هو: ميدان الغَيْب ، إنه ما وراء المادة ، ما وراء الكون ، ما وراء المُحَسّ ، أى أنه: الميدان الذى لا تتأتَّى المعرفة فيه بإنعام النظر وإعمال الفكر ، إذ إن إنعام النظر وإعمال الفكر لا يتأتَّى إلا فى المجالات التى تمدُّنا فيها الحواس بالأساس وبالأصل الذى نبنى عليه ونستنتج منه ونبحث فيه .

وبدون هذا الأساس الحسِّىّ ، والأصل المادىّ : لا يقوم بناءٌ عقلىٌّ ولا رأىٌ نظرىٌّ سليمٌ . وعالم الإلهيات ، أو عالم الغيب - على حد تعبير القرآن - ليس ماديًّا ، وهو ـ إذن ـ لا يقع تحت الحِسِّ ، وليس للحِسِّ فيه مجال .

وهو ـ من أجل ذلك ـ « حِجْرٌ محجورٌ على العقل » .. يقول ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣هـ :

« إن الله : ليس كمثله شىء ، فكيف يُدْرَكُ بقياس أو بإنعام نظر؟ » وإذا حاول الإنسان ـ إذن ـ أن يصل إلى عالم الغيب : عالم المجرَّدات ، بإنعام النظر : فإنه يحاول السير فى طريق مغلق ، إنها محاولة الجاهل ، إنها محاولة بُنيت على أساس خاطئ ، فكل ما تصل إليه من نتائج ؛ إنما هى تخبُّط وضلال وجهل ، وكلما أمعن الإنسان فى الطريق العقلى محاولاً معرفة عالم الغيب فإنه لا يزداد بذلك إلا حيرة وجهلاً .

ومن البديهى : أن الانحراف فى الوسيلة يؤدى إلى الانحراف فى النتائج ، والأساس المنهار لا يُبنى عليه قصرٌ مَشِيد ؟ !

وقد حاول اليونان (أرسطو ومدرسته ، والمدرسة الأبيقورية ، والمدرسة الرواقية) أن يقيموا مذاهبهم فى ما وراء الطبيعة على العقل؛ وكانت النتيجة التى انتهت إليها هذه المدارس : مجموعة من الآراء المتضاربة المتعارضة ، المتناقضة ، المتأرجحة بين النفى والإثبات ، وبين الشَّكِّ واليقين .

- أيها أصحُّ ؟ أيها أَقْوَمُ سبيلاً ؟ أيها أَهْدَى طريقاً ؟

إذا أردت الإجابة عن هذه الأسئلة «عقليًّا» فليس هناك من مناص من الحيرة والشَّكِّ والتردُّد، ثم الوقوف عن إبداء الرأى، فإذا أخلصت لمنطق العقل، فليس لذلك معنى إلا «الجهل».

وإذا مال الإنسان - إذن - إلى لسان أرسطو، إذا انصرف إلى الفكر اليونانى، فى ما وراء الطبيعة، أى: إذا اتخذ العقل أساس المعرفة فى عالم ما وراء الطبيعة، فإن معرفته: إنما تكون جهلاً، وعلمه يكون وهماً:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ وغايةُ سَعْيِ العالمينَ ضَلالُ

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[١] والرسول الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى وجعله خاتماً للرسل وتكفَّل بحفظ الكتاب الذى أنزله عليه، هو محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه -..

أرسله الله بلسان قومه، وهم العرب، وأرسله بكتاب يتضمن كل ما يحتاج الإنسان إلى معرفته من عالم الغيب، وهو كتاب:

﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[٢].

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٣].

وكشفه عن عالم «ما وراء الطبيعة» - إذن -: إنما هو كشف الحكيم العليم فإذا تمسَّكنا به فإنما نتمسك بالعصمة المطلقة، بالحق الواضح، بالصراط المستقيم، والمعرفة به: معرفة صحيحة، والعلم به: علم لا ريب فيه، والعدول عنه: إنما هو عدول عن المعرفة إلى الجهل، وعن العلم إلى الوهم!!

أما المعرفة به - على وجهها المستقيم -: فإنها تتأتَّى أَضْوَأَ ما تكون وأَسْنَى ما يمكن؛ إذا انصرف الناس إلى لسان العرب..

---

(١) سورة الجن: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) سورة فصلت: ٤٢.

يقول السيوطى فى تعليقه على كلام الشافعى - رضى الله عنه-:

« ولم ينزل القرآن ، ولا أتت السُّنَّة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم فى المحاورة ، والتخاطب ، والاحتجاج ، والاستدلال ، لا على مصطلح اليونان . ولكل قوم لغة واصطلاح ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) .

فَمَنْ عَدَلَ عن لسان الشرع إلى لسان غيره ؛ وخرج الوارد من نصوص الشرع عليه ؛ جَهِلَ وضَلَّ ولم يُصِبِ القصدَ » .

هذا هو ما عناه الإمام الشافعى بجهل الناس ، أما ما عناه باختلافهم - حينما يميلون إلى لسان أرسطو - فإنه يحتاج إلى بيان .

* * *

٣

« ما جَهِلَ الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسانَ العرب وميلهم إلى لسان أرسطو » (**الشافعى**) .

ولسان أرسطو - وهو الفكر اليونانى النظرى فى ما وراء الطبيعة والأخلاق ـ قائم على العقل : مقدماته ونتائجه .

وليس من المحتم أن يكون لسان أرسطو خاصًّا باليونان فقط: فإن كل نزعة فى البحث فى ما وراء الطبيعة والأخلاق تتخذ من العقل أساساً ؛ فإنما هى نزعة أرسطية ؛ إنها لسان أرسطو .

لسان أرسطو ـ إذن ـ : عنوان على كل تأليف يقوم على العقل وحده . وأُولى المحاولات من هذا النوع حدثت فى الإسلام فى عهده الأول ، حينما أراد بعض الناس أن يتحدث فى القَدَر بعقله ، فنهى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن ذلك نهياً حازماً حاسماً.

---

(١) سورة إبراهيم : ٤ .

وحدث فى عهد سيدنا عمر أن حاول صَبِيغ (على وزن أمير) أن يثير بعض المسائل الدينية، معتمداً على عقله فى الجدل والنقاش، فضربه أمير المؤمنين بعراجين النخل حتى سال الدم من رأسه ، وزالت مع سيلان الدم هواجسه وأهواؤه .

ثم كانت محاولات فردية ونزعات شخصية تقوم وتخمد ، وتنتهى عادة بانتهاء أصحابها ، ولكن الأمة الإسلامية فى مجموعها كانت تتجه باستمرار إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، تتخذ منهما قدوة وأسوة ومنارة للهداية والرشاد ؛ إنها كانت تقوم على الوحى، وهذا الاتجاه هو الذى يقابل اتجاه أرسطو ، إنه يسمَّى فى الاصطلاح الكلامى بالاتجاه السلفى .

وهو الذى تشير إليه وتحث عليه كلمة (إسلام) ..

فالإسلام : إنما هو إسلام الوجه لله ، إنه الاستجابة التامة لأمره سبحانه ، إنه تلمُّس رضاه فيما يأتى الإنسان وما يَدَع ، إنه العزم المصمِّم على اتخاذ الوحى أساساً ، وعلى الصدور عنه فى كل عمل، وفى كل نية .

هناك - إذن - أساسان مختلفان للعقيدة وللسلوك : أحدهما بشرى وهو «العقل» وهو لسان أرسطو ، والآخر إلهى وهو : «الوحى» .

والوحى لا يوجد الآن فى صورته الصحيحة إلا فى اللغة العربية ، ولا يتأتَّى فهمه فهماً دقيقاً إلا بتذوُّق هذه اللغة والتعمُّق فيها .

والأمثلة التى نوضح بها ذلك كثيرة ، منها مثلاً ما يرويه السيوطى من أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء يناظره فى وجوب عذاب الفاسق ، فقال له : يا أبا عمرو ، الله يُخْلِفُ وَعْدَهُ ؟

فقال : لن يُخْلِفَ وَعْدَهُ .

فقال عمرو : فقد قال : وذكرَ آيةَ وَعِيدٍ .

فقال : من العجمة أتيتَ ، الوعد غير الإيعاد ، ثم أنشد :

وَإِنِّـى وَإِنْ أَوْعَدْتُـهُ أَوْ وَعَدْتُـهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِى وَمُنْجِزُ مَوْعِدِى

بل إن « تنوين » اسم فى جملة ، وعدم تنوينه فى نفس الجملة : يجعل المعنى يختلف .

ومما يروونه فى ذلك أنه إن قال قائل : « هذا قَاتِلُ أبى » بغير تنوين فى كلمة «قاتل» فإن معناها يختلف عن «هذا قاتلٌ أبى» بتنوين كلمة « قاتل» .

تَرْكُ لسان العرب- إذن -: يوقع الناس فى الجهل كما يوقعهم فى الاختلاف .

ولابد لذلك من دراسة لسان العرب وتفهُّمه والتعمُّق فيه وتذوُّقه ، حتى يتأتَّى فهم دقائق الكتاب الكريم .

فهم الكتاب الكريم والصدور عنه -إذن - هو مقصود الإمام الشافعى من حث الناس على ترك لسان أرسطو ، والعودة إلى لسان العرب ، أى : الوحى .

ولقد كانت الأمة الإسلامية سائرة على ذلك طيلة القرن الأول الهجرى ..

اللهم فيما عدا الحالات الفردية التى أشرنا إليها من قبل .

بيد أن الإنسان بطبيعته نَزَّاعٌ إلى أن يسير فى الحياة بتوجيهات بشرية ..

وهو لذلك يحاول ابتداع عقيدة يؤمن بها ، واختراع مذهب يعتقد فيه ، فإذا حال دون ذلك وجود عقيدة سماوية وقوية : فإنه يحاول أن يلوِّنها ببشريته وأن يصبغها بنزعته وأن يقحم بشريته فى ثناياها : تأويلاً لها ، وميلاً بها إلى منعطفات رغباته ، وسيراً بها إلى مرضاة هواه .

وهو يفعل ذلك فى أغلب الأحايين دونَ شعورٍ سافرٍ منه بما فى عمله من انحراف ، قليل أو كثير ، عن الطريق الذى يحبه الله من المؤمن ، والذى ركَّزه سبحانه فى كلمة « إسلام » .

ولقد كانت أول محاولة مذهبية منظمة لإقحام البشرية فى دائرة الوحى إنما هى المحاولة الاعتزالية: محاولة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومَنْ لفَّ لفَّهما، أو نَهَجَ نَهْجَهُمَا : وهى محاولة أساسها من غير شك طغيان البشرية وغلبة الهوى ،

وإن ظهر ذلك فى صورة من التلبيس مموَّهة ترى أن عملها خدمة للدين :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (١).

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٢).

ولأن هذا الاتجاه - إقحام البشرية فى دائرة الوحى - يتلاءم مع الكبرياء البشرى ، ومع الغرور الإنسانى ؛ انتشر المذهب الاعتزالى ، واكتسب أتباعاً عديدين ، بل وصل به الأمر إلى أن تبنَّاه الملوك والأمراء .

الاتجاه الاعتزالى - إذن- إنما هو نمط من لسان أرسطو ، هو نمط خفيف إلى حد ما ، ولكنه من غير شك لسان من ألسنة أرسطو : إنه لسان المتكلِّمين .

المتكلمون -إذن -فى الجو الإسلامى إنما يعبِّرون عن نزعة بشرية تقحم نفسها فى الوحى بصورة تحاول أن تكون مقنعة ، ولكنها مهما حاولت أن تَخْفَى على الناس ، بل على أصحابها : فإنها لا ينقصها الوضوح عند ذوى الشعور الدينى السليم .

وقد ثار على هذا الاتجاه أئمة المسلمين الأصفياء وقادتهم الأتقياء : ثار عليه الإمام الشافعى ، والإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل ، والإمام سفيان ، بل ثار عليه جميع أئمة المحدِّثين من السَّلَف ، رضوان الله عليهم .

وندع الحديث عن تفصيل هذا إلى مناسبة أخرى ، ولكننا نريد أن نشير إلى النتيجة التى نتجت عن هذا الاتجاه الاعتزالى :

إن البشر يختلفون ذكاءً ، وثقافةً ، وبيئةً ، وطبيعةً . ونزعاتهم ـ من أجل كل ذلك ـ مختلفة : فإذا أقحموا بشريتهم فى الوحى؛ اختلفت آراؤهم ، وتفرقت نزعاتهم ، وتشتَّتت أهواؤهم ، فكانوا شِيَعاً وأحزاباً .

---

(١) سورة فاطر : ٨ .

(٢) سورة الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

ولذلك افترقت الأمة ، منذ دخول هذه النزعة ، بعد أن كانت موحَّدة ، وانقسمت إلى فِرَق وطوائف تتضارب وتتعارض ، وتتصارع وتتناقض .

وإنه لمن ضحك الأقدار أن المعتزلة أنفسهم : قد انقسموا إلى طوائف بعدد مَنْ نبغ فيهم من شخصيات ، ولقد وصل الأمر بكل من هذه الطوائف نفسها أن رمت ما عداها بالانحراف والضلال .

وإنه لمن ضحك الأقدار أيضاً أن يُقام على أساس هذه النزعة تراث ضخم يسمِّيه «البشريون» علم الكلام الإسلامى ، أو علم التوحيد الإسلامى ، وما هو من التوحيد فى شىء .

وإنه لمن المحزن أن يضيع صوت الأئمة الأجلاَّء (الشافعى ومالك وابن حنبل وسفيان) فى وسط الجرى وراء البشرية .

إن هذا الجرى وراء الفكر البشرى - لسان أرسطو - قاد المسلمين إلى الجهل، لأن الانصراف عن الوحى إلى الفكر الإنسانى : إنما هو انصراف عن علم إلى جهل ، وقاد الأمة الإسلامية إلى الاختلاف والتفرُّق بعد الوحدة فى العقيدة والتماسك ؛ لأن الانصراف عن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو « الوحى » إلى ما يخطئ وينحرف ويضلُّ وهو « الفكر » : إنما هو انصراف عن مصدر وحدة إلى مبعث تشعُّب .

وصدق الشافعى :

« ما جَهِلَ الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسانَ العرب وميلهم إلى لسان أرسطو » .

* * *